186

المخطوطات العربية في جمهورية أوزبكستان

د. محمد البخاري ✤

عند الحديث عن المخطوطات العربية الإسلامية الهامة في جمهورية أوزبكستان، لابد من أن يبدأ الحديث من النسخة الوحيدة والأصلية من مصحف عثمان بن عفان (رض) المحفوظة في مكتبة الإدارة الدينية، والتي يحتاج الحديث عنها إلى دراسة خاصة. وعن معهد أبي ريحان البيروني للاستشراق التابع لمجمع العلوم بجمهورية أوزبكستان، الذي سنتناوله بالحديث في هذه الدراسة، والذي يعتبر من أغنى وأشهر المؤسسات العلمية في عالم اليوم التي تحتفظ بنفائس التراث العلمي والأدبي المكتوب بلغات الشعوب الإسلامية.

(✤) د. محمد البخاري: باحث من سورية، أستاذ في جامعة طشقند، قسم اللغة العربية. له عدة أبحاث منشورة في مجلة المعرفة.

سطور من تاريخ أكبر معاهد المخطوطات في أوزبكستان

وكان المعهد قد تأسس في عام ١٩٤٣ كمؤسسة للبحث العلمي المتخصص، بديلاً عن قسم المخطوطات الشرقية الذي أحدثته سلطات الاحتلال الإمبراطورية الروسية، ضمن المكتبة العامة بطشقند عاصمة تركستان الروسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكان لقسم المخطوطات الشرقية ذلك الفضل الكبير في جمع وحفظ ودراسة المخطوطات النفيسة التي كانت تعج بها المكتبات الخاصة ومكتبات المدارس الإسلامية (المقصود بمصطلح «مدرسة» في تركستان آنذاك مؤسسة للتعليم العالي، وتبدل مدلوله بعد الاحتلال ليحل مكانه تسميات أخرى كجامعة ومعهد. بينما لم يزل يطلق على المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية في المنطقة حتى اليوم اسم «مكتب») المنتشرة في مدن وقرى ما وراء النهر (آسيا المركزية اليوم) قبل اجتياح جيوش الإمبراطورية الروسية للدول التي كانت قائمة في ما وراء النهر آنذاك.

والهدف طبعًا من الإصلاحات الثقافية وإصلاحات نظام التعليم في المناطق التي خضعت للاحتلال الإمبراطوري الروسي، هو خدمة أهداف الاحتلال والضم وتبريره، وتدعيم السلطات الاستعمارية في المنطقة، والقضاء المخطط والمنظم على المؤسسات الثقافية، ومؤسسات التعليم التقليدية فيها، لتحل مكانها بالتدريج المؤسسات الثقافية ومؤسسات وأنظمة التعليم الاستعمارية.

وعرف المعهد في بداية تأسيسه باسم «معهد دراسة المخطوطات الشرقية»، وسرعان ما تبدل فيما بعد ليصبح في عام ١٩٥٠ «معهد المخطوطات»، إلى أن استقر أخيرًا في عام ١٩٥٧ على اسمه الحالي وهو «معهد أبي ريحان البيروني للاستشراق».

جهود أبناء المنطقة للحفاظ على تراث أجدادهم قبل الاستقلال

ورغم اختلاف أهداف تأسيس المعهد التي رمت إليها سلطات الاحتلال الإمبراطورية الروسية، الساعية إلى تكريس الاحتلال وتثبيت جذور السلطات الاستعمارية والاستيطان في المنطقة، وأهداف السلطات السوفييتية من بعدها، تلك السلطات التي تابعت سياسة الخداع والتمويه وإخفاء الأغراض الحقيقية على الشعوب الإسلامية الخاضعة لسلطتها. فقد استطاع المعهد منذ تأسيسه وحتى اليوم، أن يكون مدرسة علمية حقيقيّة وجادة تهتم بدراسة التراث الأدبي والعلمي المخطوط لشعوب آسيا المركزية، والشعوب الإسلامية بصورة عامة، والمحافظة على

التراث الضخم الذي تم جمعه من التلف والضياع، وتمكن المعهد من تحقيق وإصدار ونشر الدراسات عن المخطوطات المحققة، وإعداد القوائم البيبليوغرافية للمخطوطات التي يحتفظ بها في أوزبكستان حتى اليوم، وتصويرها على شرائح شفافة تسهل عملية نقلها واسترجاعها ودراستها بفضل الرعاية التي حرص عليها العاملون في المعهد من أبناء المنطقة انطلاقًا من إدراكهم للهدف العلمي الجليل الذي حرصوا عليه، وكأنهم كانوا على موعد مع القدر لتستخدم تلك الآثار الأدبية واللغوية والعلمية والتاريخية النفيسة المحفوظة في المعهد، وبتشجيع من القيادة الأوزبكستانية لإعادة كتابة تاريخ الشعب الأوزبكي، وشعوب المنطقة اليوم بعد استقلال جمهورياتها الخمس (أوزبكستان، وقازاقستان، وتركمانستان، وقرغيزستان، وطاجكستان)، والإسهام في تسليط الأضواء على حقائق تم تجاهلها عمدًا من تاريخ شعوب آسيا المركزية عبر القرون، وإحياء تاريخ الدول الإسلامية التي كانت في أوج ازدهارها يومًا ما، واستخلاص العبر من دروس وأسباب انهيار تلك الدول، في دراسات مبنية على أسس علمية متينة وواضحة ما كانت لتتم لولا ذلك الكنز التراثي الضخم الذي يحتفظ به معهد أبي ريحان البيروني إلى اليوم.

وبالفعل قام أتباع تلك المدرسة العلمية المتميزة عن مدارس الاستشراق الأخرى في العالم، من حيث الأهداف والمرامي، بأبحاث علمية شملت مختلف الاتجاهات العلمية، من التاريخ، إلى الأدب، وتاريخ العلوم، والثقافة، والمجتمع. مستمدة من تلك المخطوطات التي خلفها وراءهم علماء وجهابذة القرون الوسطى من آسيا المركزية وأنحاء أخرى من العالم الإسلامي.

حيث قام المعهد بإصدار نشرات، وفهارس تحدثت بشيء من الشرح والتفصيل عن تلك المخطوطات الأثرية التي تعدّ من المصادر العلمية النادرة، وهو ما تعترف به المراكز العلمية الأخرى في العالم، والأوساط العلمية المهتمة بدراسة تاريخ التراث المكتوب للشعوب العربية والإسلامية في كل مكان. ونتيجة للجهود العلمية المخلصة واعترافًا من الأوساط العلمية بتلك الجهود الكبيرة، حصل المعهد حتى في ظل الحكم السوفييتي في مطلع الثمانينات من القرن العشرين، على جائزة أبي علي حسين بن سينا الدولية، التي أنشأها الاتحاد السوفييتي السابق.

سطور من تاريخ المخطوطات في أوزبكستان

وتذكر المصادر التاريخية الحديثة أن أول ذكر لمجموعات التراث الأدبي والتاريخي والعلمي المخطوط المحفوظة في أوزبكستان اليوم، يرجع لسبعينات القرن التاسع عشر، الذي يصادف تاريخ تأسيس

أول مكتبة عامة في طشقند بعد الاجتياح والاحتلال والضم الإمبراطوري الروسي لأجزاء شاسعة من تركستان، وحوت المكتبة بين أقسامها المختلفة قسمًا خاصًا «للمخطوطات الشرقية» كما سبق وأشرنا، والمقصود «بالمخطوطات الشرقية» هنا عند المستشرقين الروس الدول الواقعة شرق أوربا، أي العالمين العربي والإسلامي، والقارتين الآسيوية والإفريقية، فجاءت التسمية «الاستشراق» رغم وقوع أوزبكستان في دائرته، لأن الاستعمار في تلك المرحلة كان في أوج ازدهاره، والدول الاستعمارية ومن بينها الإمبراطورية الروسية تتطلع وتتسابق للحصول على المزيد من المستعمرات في الشرق المغلوب على أمره، والاستشراق كان واحدًا من أدواته ووسائله وأسلحته الناجعة.

وهنا لا بد من أن أشير إلى حقيقة تاريخية لا تقبل الجدل، وهي أن تقاليد إقامة المكتبات العامة والخاصة وجمع المخطوطات والمحافظة عليها، فيما وراء النهر، كغيره من أجزاء العالم الإسلامي، تمتد بجذورها إلى فجر الإسلام والقرون الوسطى حيث شهد ما وراء النهر حضارة إسلامية مزدهرة. وتذكر المصادر التاريخية لتلك الحقبة الزمنية من تاريخ العالم الإسلامي، المكتبات الغنية التي تركتها الدولة السامانية (٢٠٤-٣٩٥/٨١٩-١٠٠٥)، والدولة الغزنوية (٣٦٦-٥٨٢)، والدولة التي أسسها الأمير تيمورلانك (٧٧١-٩١٢/ ١٣٧٠-١٥٠٦)، واستمر بها أحفاده من بعده وعرفت بدولة التيموريين، حتى سقوط آخر دولها في الهند على أيدي المستعمرين الإنكليز في نهاية القرن التاسع عشر، والدولة الشيبانية (٩٠٥-١٠٠٧/ ١٥٠٠-١٥٩٨). وفي المدن الإسلامية العريقة: بخارى شريف، ومرو، وسمرقند، وغزنة، وهيرات، وغيرها من الحواضر الإسلامية الشهيرة في القرون الوسطى.

وشهدت السنوات التي امتدت ما بين القرنين ١٧و١٩، في آسيا المركزية تشكل ثلاث دول، هي: (إمارة بخارى، وخانية خيوة، وخانية قوقند)، جمعت فيها المخطوطات في مكتبات القصور والمدارس، وفي مكتبات العلماء، والمهتمين كمجموعات خاصة. وقد تعرض أ.أ. سيميونوف، لتاريخ تشكل مجموعة التراث المكتوب والمخطوطات النادرة لدى معهد أبي ريحان البيروني للاستشراق بإسهاب، في مقدمة المجلد الأول من فهرس «مجموعة المخطوطات الشرقية».(1) وتحدث عن تلك المجموعة بإسهاب كل من س. عظيم جانوفا، ود غ. وفورونوفسكي في مقالاتهما الشاملة،(2) إضافة لمقالات أ. أورونبايف،(3) و ك. منيروف وغيرهم.(4)

وفي عام ١٨٨٩ صدر فهرس صغير لتلك المجموعة التي كانت صغيرة أيضًا تحت اسم «مخطوطات مكتبة تركستان العامة: باللغات الفارسية، والعربية، والتركية»، وضعه ي.ف. كاليم. وضم شروحًا لـ ٨٧ مجلدًا فقط، إضافة لـ ١٢٦ عنوان كتاب مخطوط، تحدثت كلها بشكل خاص عن تاريخ تركستان، وإيران، والهند، توزعت إلى ٧٨ مخطوطة باللغة الفارسية، و١٩ مخطوطة باللغة العربية، و٢٩ مخطوطة باللغة الأوزبكية القديمة المكتوبة بالحرف العربي، قبل انتقال اللغة الأوزبكية إلى الحرف اللاتيني، ومن ثم إلى الحرف الروسي، ومرة أخرى إلى الحرف اللاتيني بالتدريج بعد الاستقلال.

وفي عام ١٨٩٥ تم في طشقند تأسيس نادي تركستان لهواة الآثار، الذي ضم في عضويته بعض المستوطنين الروس المهتمين بالمخطوطات وجمعها من أيدي أبناء المنطقة. وتسلم هذا النادي في عام ١٨٩٨ محتويات مكتبة محمد علي خليفة (دوكتشي إيشان) الخاصة، الذي أعدمته سلطات الاحتلال الروسية وصادرت ممتلكاته، وكان من بينها مكتبته التي احتوت على ١٩٤ مخطوطة، سلمت فيما بعد لمكتبة تركستان العامة.

وأخذت مجموعة المخطوطات تلك بالازدياد ولكن ببطء شديد، وضمت مخطوطات قيمة، كان من بينها نسخة من «جامع التواريخ» لرشيد الدين، التي نسخت أثناء حياته، من ضمن مجموعة جوره بيك، ونسخة من «ظفر نامة» لشرف الدين علي يزدي، المزركشة بمنمنمات رائعة، من ضمن مجموعة قاضي محيي الدين في طشقند، التي سبق وعرضها صاحبها في العاصمة الفرنسية باريس عام ١٨٩٧.

وبعد وصول البلاشفة إلى السلطة في روسيا، واحتلالهم لإمارة بخارى آخر دولة إسلامية مستقلة في تركستان عام ١٩٢٠، وقيام الاتحاد السوفييتي السابق. جرى تبدل ملموس في السياسة التي اتبعها الروس منذ بدايات اجتياحهم للمنطقة. وتبدلت سياسة عدم التعرض للأديان إلى حرب شعواء شنها الشيوعيون ضد الدين، وبدأت حملة واسعة لمصادرة وإتلاف الكتب الدينية، وكل ما كتب بالحرف العربي، ومعاقبة كل من يحاول إخفاءها. وتوجت تلك الحملة باستبدال الحروف العربية المستعملة آنذاك في الكتابة إلى الحروف اللاتينية. وأصدرت السلطات السوفييتية قرارًا في نيسان /أبريل عام ١٩٣٣، يقضي بحصر جهات استلام المخطوطات العربية والإسلامية المصادرة أم المقتناة بجهة واحدة هي المكتبة العامة. ومنذ ذلك التاريخ بدأت عملية حصر وجمع المخطوطات من جميع أنحاء أوزبكستان وحفظها في المكتبة العامة بطشقند. فوصل من بخارى جزء من مجموعة المخطوطات

الخاصة التي كان يملكها محمد بارس قبل وفاته في عام ١٤١٩/٨٢٢.

ومن المجموعات الخاصة التي تسلمتها المكتبة العامة في عام ١٩٣٤، : مجموعة المخطوطات التي كان يملكها رحمانوف وضمت ١٤٨ مجلداً مخطوطاً، ومجموعة أ. فطرت (عبد الرؤوف بن عبد الرحيم ١٨٨٦ - ١٩٣٧ أديب أوزبكي من أعضاء حركة التجديد المعروفة باسم «مجددي» أعدمته السلطات السوفييتية) الخاصة وضمت ١٥٠ مجلداً مخطوطاً، وضمت مجموعة نادرة من المخطوطات النفيسة، والنسخة النمنغانية لـ «كودا تغو بيليك» التي خطها يوسف خاص حاجب بالاساغوني في القرن ١١ الميلادي، وكانت حتى تاريخ تسليمها غير معروفة لاللمستشرقين السوفييت ولا للمستشرقين الأجانب.

وفي نفس العام ١٩٣٤ أيضاً تسلمت المكتبة مجموعة المخطوطات الخاصة التي كان يملكها خ. ظاريبوف وضمت ٤٠ مجلداً مخطوطاً، وفي عام ١٩٣٦ تسلمت المكتبة من ورثة الكتبي البخاري شرف جان مخدوم «ضياء» الذي توفي في عام ١٩٢٥، مجموعة من المخطوطات القيمة بلغ مجموعها حوالي ٣٠٠ مجلداً مخطوطاً، ومن بينها كانت مخطوطة كتاب (« شرف نامة إي شاهين» - «عبد الله نامة») التي كتبها حافظ تانيش البخاري في القرن ١٦، و(«مجموعي مراسلات» - «مجموعة رسائل»)، كانت قد وجهت إلى قصر التيموريين في هيرات، وخاصة للشاعر الكبير علي شير نوائي. إضافة لفهرس كتبه شريف جان مخدوم بخط يده واحتوى على معلومات كاملة عن مجموعته من المخطوطات.

وشمل قرار تركيز تواجد المخطوطات في قسم المخطوطات الشرقية وحفظها بالمكتبة العامة الحكومية بطشقند، معهد أوزبكستان للبحوث العلمية بمدينة سمرقند، ومكتبات إمارة بخارى، وخانية خيوة وغيرها، التي قامت بدورها أيضاً بتسليم ما بحوذتها من المخطوطات الإسلامية، إلى قسم المخطوطات الشرقية بالمكتبة الحكومية العامة بطشقند. ولا أعتقد بأن أحداً يختلف معي في أنه كان لتلك الخطوات التي اتبعت آنذاك، فضل كبير في حفظ ذلك التراث الإسلامي الكبير من العبث والضياع والتلف، وما كنا لنستطيع تسميته اليوم وبحق كنز كنوز المخطوطات العربية والإسلامية في العالم.

مجمع العلوم بجمهورية أوزبكستان والمخطوطات

بعد تأسيس المجمع العلمي في جمهورية أوزبكستان عام ١٩٤٣، زاد الاهتمام بالمخطوطات التراثية في

الجمهورية. ولكن الاهتمام هذه المرة كان من الناحية الأكاديمية البحتة. فأنشأ المجمع العلمي لهذا الغرض معهداً لدراسة المخطوطات الشرقية في نفس العام، وتبعته جملة من الإجراءات الهامة وجهت ليس للحفاظ على التراث المكتوب ودراسته وحسب كما كانت الحال في السابق، بل لترميم تلك المخطوطات وإصلاح ما فسد منها بفعل الإنسان وعامل الزمن إضافة لدراستها، والأبعد من ذلك التوسع في جمع الجديد والمزيد منها عن طريق الشراء المباشر من المواطنين، بعد أن زال الخوف من العقاب الصارم الذي كان يتعرض له كل من يعثر بحوذته على أي كتاب أو مخطوط ديني كتب باللغة العربية أو بالحروف العربية، كما كانت الحالة في السنوات الأولى للسلطة السوفييتية بفعل السياسة المعادية للأديان، والتي كانت السبب المباشر لفقدان أعداد هائلة من الكتب المخطوطة التي اعتاد السكان الاحتفاظ بها في بيوتهم. وحدث هذا عندما شنت السلطات السوفييتية حملتها الشعواء ضد الدين ورجال الدين، وأماكن العبادة في تركستان المحتلة، ضمن الجهود التي بذلتها لفرض سيطرتها والحكم السوفييتي الجديد على مستعمرات الإمبراطورية الروسية السابقة والتوسع عن طريق كسب المزيد منها، عندما أقدمت على احتلال إمارة بخارى آخر الدول المستقلة في المنطقة عام ١٩٢٠.

وهنا لا بد من الإشارة إلى ناحية هامة من تاريخ الاستشراق الروسي في تلك المرحلة، والذي كان منصبّاً أساساً على خدمة المصالح الاستعمارية كما سبق وذكرت، إضافة لخلق الأرضية التي احتاجتها سلطات الاحتلال السوفييتية لإحكام قبضتها على المنطقة عن طريق التجزئة والتقسيم، تحت ستار حجج واهية، منها الفرز القومي وحق تقرير المصير لشعوب المنطقة! والتي كان من ثمارها الجمهوريات المستقلة الخمس المعروفة اليوم.

جهود المعهد في جمع المخطوطات

ومن أجل الحصول على المزيد من المخطوطات، قام المعهد بتنظيم حملات سنوية، على شكل إرسال بعثات من العاملين في المعهد إلى مختلف ولايات الجمهورية، للبحث عن مخطوطات جديدة بقيت سليمة في حوذة السكان وإقتنائها منهم عن طريق الشراء، وشملت جهود البحث والاقتناء في تلك المرحلة ليس المخطوطات القديمة وحسب، بل ووسعت لتشمل المطبوعات المطبوعة في المطابع القديمة بتقنية الطباعة على الحجر. ولم تزل اللجنة الدائمة لاقتناء المخطوطات والمطبوعات الأثرية في معهد أبي ريحان البيروني للاستشراق قائمة حتى اليوم. رغم تبدل الظروف الاجتماعية والاقتصادية بعد الاستقلال، وحصول

المواطنين وللمرة الأولى منذ أكثر من قرن من الاحتلال، على حرية التنقل والانتقال والسفر التي يتمتع بها الشعب الأوزبكستاني اليوم، وبعد الستار الحديدي القائم الذي فرضته السلطات السوفييتية عليه حوالي الثمانية عقود متتالية، حرمت خلالها الأوساط العلمية والأدبية والثقافية من إقامة أية صلات مباشرة مع زملائهم في الخارج، وكانت كل الصلات محكومة من قبل موسكو وعبرها فقط. ولكن الوضع الجديد بعد الاستقلال أدى إلى تسرب المزيد من المخطوطات الهامة التي كانت لم تزل في حوذة المواطنين إلى الخارج، سعيًا من أصحابها للحصول على المال دون تقدير للآثار السلبية الكبيرة على التراث الثقافي الوطني وضياع تلك الآثار القيمة التي بحوذتهم، وانتقالها من موطنها الأصلي كسلعة يستخدمها تجار ومهربي العاديات لتلبية حاجات المترفين من الهواة في العالم الغني والدول المتقدمة، بدلاً من معاهد البحوث والدراسات العلمية.

ورغم الانخفاض الواضح والمتصاعد في أعداد المخطوطات والكتب الأثرية التي يقتنيها المعهد اليوم، يلاحظ أن لجنة المقتنيات تصادف في عملها اليوم بعض المخطوطات النادرة، ومن بين تلك المخطوطات الهامة التي اقتناها المعهد خلال السنوات الأخيرة: النسخة الكاملة من مخطوط «القانون في الطب» وتضم الكتب الخمسة التي تعدّ من أهم أعمال الشيخ الرئيس العلامة حسين بن سينا، ويعود زمن نسخ تلك المجلدات إلى بدايات القرن ١٤ الميلادي. ونسخة من كتاب «كالاندار نامة» الذي يشرح نظرية التصوف، نسخ خلال القرن ١٤ الميلادي أيضًا، و «ديوان أصلي» الذي يتضمن مجموعة شعرية للشاعر الخوارزمي مؤنس، تم نسخه في القرن ١٩ الميلادي.

مكتبة المخطوطات

وتحتوي مكتبة المخطوطات في المعهد وحدها اليوم على أكثر من ١٨ ألف كتاب مخطوط قديم، من بينها حوالي ٤٠ ألف نسخة كتبت بالحروف العربية وباللغات العربية، والفارسية، والتركية، خلال المدّة الممتدة ما بين القرنين ١٠ و ٢٠ الميلاديين. إضافة لمجموعة كبيرة من الوثائق الرسمية، تضم أكثر من ٢٠٠٠ نسخة أصلية من الوثائق الرسمية، ووثائق الوقف الإسلامي، والدعاوي الشرعية وغيرها من وثائق المرحلة الممتدة من القرن ١٥ وحتى مطلع القرن ٢٠، بما فيها وثائق رسمية لإمارة بخارى، وخانية خيوة، ومن المجموعات التي كانت بحوذة فياتكين وغيره من المهتمين بالتراث المكتوب لمنطقة آسيا المركزية. وأكثر من ٢٠ ألف كتاب طبع على الحجر، وكتب أخرى طبعت بطريقة صف الحروف اليدوية؛ ومن بينها

مطبوعات صدرت في الهند، وإيران، وتركيا، وتتارستان، وغيرها من الدول. إضافة للمجموعة الكاملة لإصدارات مطابع آسيا المركزية، خلال المدّة الممتدة من سبعينات القرن التاسع عشر وحتى عشرينات القرن العشرين وتشمل ما صدر في مطابع كاغان (إمارة بخارى)، وخانية قوقند، وسمرقند، وفرغانة (سكوبيليف سابقًا)، وطشقند، وخانية خيوة.

وبناء على قرار مجمع العلوم تم في عام ١٩٩٩ دمج معهد حميد سليمان للمخطوطات بمعهد أبي ريحان البيروني للاستشراق، وسلمت للأخير مجموعة المخطوطات التي كانت بحوزة المعهد المذكور والتي تضم حوالي ٢٥ ألف نسخة مخطوطة، و١٢.٦٠٠ كتاب مطبوع على الحجر.

ومن المخطوطات النادرة المحفوظة في المعهد اليوم النسخة الأصلية من «تاريخ الطبري»، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، المتوفى عام ٣١٠هـ الموافق ٩٢٢م، والنسخة الأصلية لترجمته الفارسية لمترجم مجهول من بخارى. ونسخة من كتاب «تجارب الأمم» نسخ عام ٥٩٥هـ الموافق لعام ١١٩٩م، لابن مسكويه، المتوفى عام ٤٢٠ هـ الموافق لعام ١٠٢٠م. و«التاريخ الكامل» لابن الأثير المتوفى عام ٦٣٠ هـ الموافق لعام ١٢٣٢م. و«جامع التواريخ» لرشيد الدين بن عماد الدولة، و«تاريخ بخارى» لأبو بكر محمد بن جعفر النارشاهي، والنسخة الأصلية من مخطوطة «مهمان نامة بخارى» لفضل الله بن روزبهان، و«بابور نامة». وفي الأدب: مخطوطات الفردوسي، وسعدي، ودهلوي، وجامعي، وعلي شير نوائي، وجلال الدين رومي، وعمر الخيام، ومحمد بن سليمان فضولي البغدادي، والزمخشري، ومحمود القشقاري. وفي العلوم نسخ من مخطوطات أبي بكر الرازي، وأبي نصر الفارابي، وأبي ريحان البيروني، وابن سينا، وياقوت الحموي.

الجهود المبذولة لتحقيق المخطوطات

وتقوم الكوادر العلمية الخبيرة والمتخصصة في مجالات الدراسات العربية، والفارسية، والتركية، والهندية، والصينية، وخبراء مجربون لهم خبرة طويلة في مجال دراسات التراث الأدبي الإسلامي ومخطوطاته، بمعهد أبي ريحان البيروني، وغيره من مؤسسات التعليم العالي ومراكز البحث العلمي في الجمهورية، ومن بينها جامعة طشقند الحكومية للدراسات الشرقية، والجامعة الإسلامية الحكومية، والجامعة القومية الأوزبكية وغيرهم،

بدراسة وتحقيق المخطوطات الإسلامية، ويعكفون جميعًا على متابعة دراسة وتحقيق تلك الثروة الكبيرة من المخطوطات العربية والإسلامية.

ومن المعروف أن عملية دراسة المخطوطات الإسلامية في أوزبكستان كانت قد بدأت في الثلاثينات من القرن العشرين، خلال زمن حفظ بعض تلك المخطوطات في المكتبة العامة بطشقند، حيث بدأت أعمال الوصف العلمي للمخطوطات فقط، وحتى عام ١٩٤٣ تم إنجاز فهارس للمخطوطات التي بحوزتها تقع في أربعة مجلدات. نشر المجلد الأول منها عام ١٩٥٢، والمجلد الرابع في عام ١٩٥٧. واستمر إصدار سلسلة الفهارس بعد تأسيس معهد الاستشراق حيث تم فيه إعداد سبع مجلدات أخرى من فهرس «مجموعة المخطوطات الشرقية»، وتم إصدار المجلد الأخير الحادي عشر في عام ١٩٨٧. وشملت المجلدات التي صدرت وصوفًا لـ ٧٥٧٤ مخطوطة، من بينها أكثر من ٣٠٠٠ مخطوطة أصلية تتضمن حوالي ٢٠٪ باللغة التركية، و٤٠٪ باللغة العربية، و٤٠٪ باللغة الفارسية.

وتضمنت الدراسات الوصفية التي قامت بها مجموعة كبيرة من المتخصصين كما سبق وأشرنا في مجالات الدراسات العربية والإيرانية، والتركية، أمثال: سيمينوف، وفورونوفسكي، وأورونبايف، وإيبيفانوفا، وجليلوفا، وأدنالوف، وبيلاييف، وبيتغير، وجوكوف، وكونونوف، وميكلوخو - ماكلايا، وساليه، وسميرنوفا، وتفيريتينوفا، وتشخوفيتش، وشميدت، وعبد الله ييف، وعبد الصمادوف، وعزيز زادة، وعظيم جانوفا، وأكمالوف، ووهابوفا، وولدانوف، وفولوشينا، ودوبروفسكايا، وزافادوفسكي، وذونتونوف، وقاضي بيردوف، وقيوم وف، ومنير وف، ونعما توف، وبولياكوفا، وريزاييف، وتاللاشوف، وحمرابيف، وحكمة الله ييف، ويوسوبوفا وغيرهم. ولكن هذا المشروع العلمي الكبير ومع الأسف الشديد توقف عن العمل منذ عام ١٩٩٠ بسبب الصعوبات المالية التي لم يزل يعاني منها المشروع.

ورافق صدور سلسلة فهارس «مجموعة المخطوطات الشرقية»، إصدار مجموعة من الفهارس المتخصصة، تضمنت وصفًا لمخطوطات علماء، وأدباء مسلمين كبار أمثال عبد الرحمن جامعي[٥]، وعلي شير نوائي[٦]؛ وخسراو دهلوي[٧]، وأبو نصر الفارابي[٨]، وأبو علي بن سينا[٩]، وتم كذلك إصدار فهرس خاص للمؤلفات التي تناولت تاريخ مرحلة الاحتلال الروسي لآسيا المركزية[١٠]، وآخر فهرس منها خصص للمؤلفات التي تناولت تاريخ الطريقة الصوفية النقشبندية[١١].

التعاون الدولي لتحقيق المخطوطات العربية الإسلامية في أوزبكستان

كما وجرت بعض المحاولات لإحياء المشروع بعد الاستقلال لمتابعة إصدار «مجموعة المخطوطات الشرقية» بالتعاون مع المستشرق الألماني البروفيسور يو. باولا. وجمعية التعاون التقني الألمانية وجامعة مارتين لوتير بمدنية هالليه، وبعض الجهات الأخرى لم تؤد كلها إلى نتائج ملموسة. ومع ذلك فقد جرت محاولات ناجحة بالتعاون مع المختصين من دولة الإمارات العربية المتحدة صدر بنتيجته فهرس للمخطوطات باللغة العربية[١٢]، وبالتعاون مع المختصين الإيرانيين أسفرت عن إصدار فهرس واحد عن المخطوطات التاريخية باللغة الفارسية[١٣]. وكانت آخر ثمار العمل المشترك إصدار «المعجم المفهرس للمخطوطات العربية الإسلامية في طشقند عاصمة جمهورية أوزبكستان» في أحد عشر مجلداً ببيروت، بإسهام من مؤسسة كاللو هولدينغ التي يملكها المستثمر اللبناني مروان كاللو ولها استثمارات ناجحة في أوزبكستان[١٤].

ويحتوي هذا العمل الكبير، الذي ترجمه إلى اللغة العربية أ.د. نعمة الله إبراهيم وف، وأ.د. تيمور مختار وف، ود. راميل شاكيروف، ثمرة جهود متواصلة لمجموعة كبيرة من العلماء استمرت نحو نصف قرن من الزمن وتضمنت وصوفًا للمخطوطات، تشمل عنوان المخطوطة، واسم مؤلفها، وملخصًا عن محتواها، وتاريخها، واسم ناسخها مع تاريخ النسخ، وتضمنت أبواب المجلدات العناوين التالية:

المجلد الأول: تاريخ الطبري، ومروج الذهب ومعادن الجوهر، والكامل في التاريخ، وعلم الأنساب، وتاريخ إيران، ومراسلات رسمية، ورحلات ومذكرات، وقواميس تعليمية، وقاموس عربي - طاجيكي، وعلم الفلك، والعلوم الطبية، والوافي في النحو، وفهرس بأسماء النساخ.

المجلد الثاني: مخطوطات أدبية ونثرية، وقصيدة «بانت سعاد»، والعقد الفريد، وشاه نامة، والقصيدة النفسية، ورباعيات عمر الخيام، وديوان خاقاني، ومجنون ليلى.

المجلد الثالث: مخطوطات فلسفية، وفي التصوف، وأرسطوطاليس، ونوادر وحكم تنسب إلى أفلاطون، ورسالة جواز السائرين، وشجرات النسب، وسلسلة الأولياء ورسائل منوعة، ومقامات.

المجلد الرابع: قصص الأنبياء، والسيرة النبوية، وغزوات النبي (ص)، المعراج، والخلفاء الراشدين، والقرآن الكريم: تفسيره وقراءته، والحديث النبوي الشريف وشرحه، وسير الفقهاء، وفتاوى في الإرث والصيام والزواج وغيرها.

المجلد الخامس: تاريخ الطبري، وشجرات سلسلة النسب، وتاريخ آسيا الوسطى، وتاريخ الهند، وتاريخ تركستان الشرقية، وكتب في السير والتراجم، ومؤلفات في التاريخ والجغرافيا، وسير حياة عدد من الأعلام، وفي الأدب الرفيع، وفي الأدب الشعبي، ورسالة في الحروف ومعانيها، وفي علم النبات والحيوان، ومئة سؤال طرحها أعرابي، وتفسير بعض السور القرآنية، وبعض قواعد الهمزة، ورسالة في إثبات النبوة.

المجلد السادس: زبدة التواريخ، والجغرافية التاريخية، وعلم الهيئة، ورسائل في الطب، وقصائد وغزليات، وفي التعليم، والقرآن الكريم: نصوص وقراءة، والتحفة المرسلة إلى النبي (ص).

المجلد السابع: روضة الصفاء في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، وشجرة نسب ملوك خوارزم، وتاريخ خوارزم، وفي الأدب والشعر، وقصة يوسف وزليخا، ودواوين شعر، وفي العلوم الخفية، ورسائل في الطب، وفي تفسير القرآن الكريم، وفي التصوف.

المجلد الثامن: تاريخ الطبري، ونظام التواريخ، وفي تاريخ الهند، وفي سير وتراجم الحياة، وعجائب الحياة، وعجائب البلدان، وفي الرسم والخط.

المجلد التاسع: التاريخ، ومذكرات ورحلات، وسير ذاتية، والأدب الروائي، ونظرية الأدب، والإنشاء، والقواعد، والطبيعيات، وعلم التنجيم والفلك، وعلم الحيوان، والفيزياء، وعلم المعادن، والعلوم الدفينة، والطب، والجغرافيا وعلم الفضاء، والفلسفة، وتاريخ الدين الإسلامي، والمذهب الصوفي، والطقوس والأدعية، والمراسلات.

المجلد العاشر: التاريخ والعلوم المتقاربة، وجامع التواريخ، وتاريخ آسيا الوسطى، وتيمور نامة، ومراسلات، وعلم القواميس، والمعجم الرشيدي، ونظم الشعر، والظواهر الطبيعية، والطب البيطري، وفي الفقه.

المجلد الحادي عشر: الجزء الأول: عجائب القصص، وتاريخ آسيا الوسطى، وتاريخ تركيا، وتاريخ الهند، ووثائق رسمية، والعلوم الطبيعية، وعلم الفلك، والبيطرة، وعلم المعاجم، وتفسير القرآن الكريم.

الجزء الثاني: المذاهب الإسلامية، وعلم الدين الشفهي، وتحفة السلطان، والشعائر الدينية، والتصوف.

ومن نظرة متفحصة للمواضيع التي تناولتها المخطوطات آنفة الذكر في المجلدات الـ ١١ من المعجم، نرى أنها تناولت كافة المجالات العلمية المعروفة آنذاك، وهي: التاريخ، وتاريخ الأديان،

والفلسفة، وحكايات الرحالة، وتراجم، ورسائل، ونظرية اللغة والأدب، والعلوم الحية كالرياضيات، والفلك، والفيزياء، والكيمياء، والمعادن، وعلم الحيوان، والطب، والجغرافيا والكون، والفنون كالموسيقى، والخط العربي، والحرف اليدوية، والرياضة، والشعر، والنثر، والفلكلور، والتصوف، والموسوعات الخ.

تراث الأجداد وليس المخطوطات الشرقية!

ودراسة تراث الأجداد، وليس الاستشراق كما تشير المراجع الروسية لم تنحصر في دراسة التراث الغني لعلماء ما وراء النهر طيلة زمن الاحتلال الروسي والسوفييتي من بعده، وفق المدخل العلمي للاستشراق الذي يخدم المصالح الاستعمارية للامبراطورية الروسية، والتي قام بها المستشرقون الروس الذين قدموا لطشقند خصيصًا لهذا الغرض، والمستوطنون من أبناء القوميات الأخرى في الإمبراطورية الروسية، وكان الهدف منها التعرف على عادات وتقاليد ونقاط ضعف الشعوب المحتلة لتسهيل مهمة السيطرة عليها، وحكمها، ونهب خيراتها، وسلبها شخصيتها وثقافتها وتاريخها. بل كانت عكس ذلك تمامًا بعد أن تغير الوضع منذ دخول أبناء المنطقة عالم الدراسات «الشرقية» حتى خلال الحكم السوفييتي، حتى أنه تبدلت واختلفت نظرتهم تمامًا عن نظرة المستشرقين الروس، وحتى في فهم مصطلح «الاستشراق» بشكل عام. فهم عندما يتناولون بالبحث المخطوطات التراثية القديمة، فهم يتناولون أعمال علماء كبار من أجدادهم المسلمين الذين حملوا يومًا ما عبء التقدم الحضاري في العالم الإسلامي خدمة للإنسانية جمعاء. وزاد هذا المفهوم وضوحًا بعد استقلال جمهورية أوزبكستان، وأصبحت تلك الكنوز العلمية التي حفظها القدر وجهود البعض من التلف والضياع، الشاهد الحي والملهم لإعادة كتابة تاريخ ليس أوزبكستان وحسب، بل وآسيا المركزية، وأنحاء كثيرة من العالم الإسلامي المعاصر، وتنقيته من الشوائب والتحريف الذي لحق به خلال أوقات عصيبة تعرضت لها الشعوب المحتلة في المنطقة، وتعرض خلالها تاريخهم إلى كل أنواع البلع والاستيعاب والتزييف وطمس الشخصية والذات القومية والثقافية.

النظرة الجديدة من تحقيق تراث الأجداد

وجاءت الدراسات والبحوث اليوم مختلفة عن دراسات المرحلة الاستعمارية التي خضعت لها آسيا المركزية، فأخذت تلقي الضوء على الحقائق التاريخية، وعلى تاريخ العلوم والثقافة، التي عاشها هذا الجزء الكبير والهام من العالم الإسلامي

حتى مطلع القرن العشرين، من خلال التعليقات العلمية والشروحات لمضمون التراث الغني الذي تحفظه صفحات المخطوطات التراثية، وتدقيق الترجمات والنصوص النقدية. وتحقيق التراث في العلوم الحية، التي كتبها الخوارزمي، والفارابي، والبيروني، وابن سينا، وألواغ بيك وغيرهم من كبار العلماء المسلمين. في محاولة جادة لإعادة كتابة تاريخ المنطقة من منظور جديد يعتمد الأساليب العلمية الموثقة، ابتداءً من المصادر المبكرة التي تتحدث عن تاريخ نشر الدين الإسلامي الحنيف في ما وراء النهر (آسيا المركزية اليوم)، وبالتحديد مخطوطتي («تاريخ الطبري»)، و«تاريخ بخارى» نار شاهي). إضافة للمخطوطات التي كتبها مؤلفون عاصروا الأمير تيمور والتيموريين من بعده وصولاً للمخطوطات التي تتحدث عن تاريخ (الخانيات) الإمارات الثلاث في المنطقة (قوقند، وخيوة، وبخارى) حتى نهاية القرن ١٩. وإصدارها في سلسلة خاصة، إضافة للسلاسل الأخرى التي تتحدث عن تاريخ الأدب، والفن، والجغرافيا، ومذكرات الرحالة وغيرها من المخطوطات. مع متابعة إصدار الفهارس الموضوعية للمخطوطات الإسلامية، التي صدر منها حتى الآن مجلدان الأول وتضمن المخطوطات في التاريخ[١٥]، والثاني وتضمن المخطوطات في العلوم الحية[١٦].

وتبقى التساؤلات الأكثر أهمية هنا، على من يقع واجب متابعة تلك الدراسات التي يقوم بها العلماء في أوزبكستان؟ وما هو الدور الذي يجب أن تلعبه المؤسسات العلمية ومراكز البحث العلمي والعلماء في العالمين العربي والإسلامي؟ وهل يجوز أن تقوم أوزبكستان التي لم يمض على استقلالها العقد الواحد فقط وحدها بتمويل مشروع حضاري كبير يخص ليس أوزبكستان وحدها بل والعالمين العربي والإسلامي، لا بل والحضارة الإنسانية بأكملها؟

وللإجابة على جزء بسيط من تلك التساؤلات، نقول: يخطئ من يظن أن أوزبكستان ستفرط يومًا ما بهذا الكنز الكبير الذي خلفه للإنسانية أجدادهم البررة، ويخطئ من يظن أن علماء أوزبكستان سيتهاونون في المحافظة على ذلك التراث الغني ودراسته ونشره ليكون في خدمة الإنسانية جمعاء نقيًا صافيًا من الشوائب في عصر العولمة الثقافية وتداعياتها. والإسهام بنظرنا يمكن أن يكون في التعاون العلمي الصادق والمشترك بين المؤسسات العلمية الحكومية وشبه الحكومية في الدول المعنية للقيام بالدراسات والأبحاث العلمية المشتركة، وإيفاد وتبادل الباحثين العلميين، وفي التمويل المشترك. فإمكانيات البعض هي

أكبر من إمكانيات البعض الآخر وهذا ليس بسر، والقاعدة العلمية التي تملكها أوزبكستان رغم حاجتها لبعض التقنيات الحديثة، يمكن أن يحسدها عليها البعض الآخر، ولكن علماءها لا يحتكرونها عن الآخرين. وبالحوار الثقافي بين الأمم الذي يتم عن طريق احترام ثقافة الآخر وتطلعاته الثقافية القومية، تكون العولمة الثقافية في عالم متعدد الثقافات تثري وتغني بعضها البعض. لا في عالم تفرض فيه ثقافة الأقوى، وتطمس وتحرف فيه ثقافة الضعيف اليوم، القوي بالأمس. وأعتقد أن الرد الحقيقي يكمن في العمل الجاد لا بالتمنيات وحدها.

الهوامش

١) مجموعة المخطوطات الشرقية لأكاديمية العلوم الأوزبكستانية. طشقند، ١٩٥٢.

٢) عظيم جانوفا س.أ. وفورونوفسكي د.غ: مجموعة المخطوطات الشرقية لأكاديمية العلوم الأوزبكستانية. خزائن الاستشراق للمكتبات الكبرى. م، ١٩٦٣. ص ١٠٠ - ١٢٧. (باللغة الروسية).

٣) أورونباييف أ. إعداد الفهارس، الأعمال التمهيدية ودراسة التراث المكتوب لشعوب الشرق في معهد الاستشراق بمجمع العلوم الأوزوبكستاني/ مواد لقاء العمل الاتحادي حول مشاكل علم المكتبات الشرقية. ل. ١-٤ آذار/مارس ١٩٨٨. ص ١٣٤ - ١٤٦؛ (باللغة الروسية)- وأيضًا في: (أوزبكستان مستقبليغي وشرق شوناصليك نينغ دولزارب موأمّولاري» العلوم الاجتماعية في أوزبكستان (OHY). ١٩٩٢ رقم ٧ - ٨. ص ٣٧-٤١. (باللغة الأوزبكية).

٤) ب. أورونباييف، ك. منان وف: أبو ريحان بيروني ناماديغي شرق شوناصليك إنستيتوتي ٥٠ يوشدا/ OHY. ١٩٩٣. رقم ٨ ص ٥٠-٥٧. (باللغة الأوزبكية).

٥) إعداد وتحرير: أورانباييف أ. بيبفانوفا ل.م. طشقند، ١٩٦٥. (باللغة الروسية).

٦) إعداد وتحرير: منير وف ق. نصير وف أ. طشقند، ١٩٧٠. ومنير وف ق. حكيم وف م. طشقند، ١٩٨٦. (باللغة الروسية).

٧) إعداد وتحرير: مؤمينوف ق. طشقند، ١٩٧٥. (اللغة الروسية).

٨) إعداد وتحرير: قاضي بيردييف أ.ل. طشقند، ١٩٧٥. (باللغة الروسية).

٩) إعداد وتحرير: وهاب وف ب. أ. طشقند، ١٩٨٢. (باللغة الروسية).

١٠) إعداد وتحرير: يبيفانوفا ل.م طشقند، ١٩٦٥. (باللغة الروسية).

١١) إعداد وتحرير: بابا خان وف شمس الدين، وعبد العزيز منصور. طشقند، ١٩٩٣. (باللغة الروسية).

١٢) إعداد وتحرير: الدكتور عبد الرحمن فرفور، الدكتور محمد مطيع الحافظ، تقديم أ. أورونبايف و ك. منير وف، دبي، ١٩٩٥. (باللغة العربية).

١٣) إعداد وتحرير: أورانبايف أ.، وسيد علي معجاني، وموسوي يف ش.، طهران، ١٩٩٧. (باللغة الفارسية).

١٤) الإشراف: أ.د. عصام الدين أورنبايف، ولاريسا يبيفانوفا. هيئة الترجمة من الروسية إلى العربية: أ.د. نعمة الله إبراهيم، د. تيمور مختار، د. راميل شاكر. تدقيق اللغة العربية: روحي طعمة. دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، بيروت، ٢٠٠٠. (باللغة العربية).

١٥) إعداد وتحرير: يوسوبوف ف.د.، وجاليلوف ر.، طشقند، ١٩٩٨. (باللغة الروسية).

١٦) إعداد وتحرير: ولدانوف أ. ب.، طشقند، ١٩٩٨. (باللغة الروسية).

❖ ❖ ❖